الإنسان والوجود في الشعر الجاهلي

د. عبدالغني زيتوني

إن الإقرار بوجود الله لدى معظم العرب، والاعتقاد في مقدرته الفائقة على الخير والشر، والتسليم بسيطرته على الكائنات، وتحكمه بالخلائق، يدل دلالة واضحة على ماوقر في أذهان غالبيتهم من أن الله قادر على خلق الكون والبشر، وقد ظهرت إشارات إلى ذلك في مواطن كثيرة من الشعر الجاهلي، إذ إنَ الشعراء كانوا إذا عرض لهم ذكر لخلق الكون والكائنات نسبوه مباشرة إلى الله، مؤكدين أنه الخالق الوحيد، وأن الخلق في مقدمة قدرته التي لا حدود لها.(١)

ولاشك في أن قسماً من هؤلاء الشعراء كان يعتنق ديانة سماوية كالحنيفية واليهودية والنصرانية، وكان قسم آخر منهم متأثراً بتلك الديانات، وما شاع عنها من أحاديث الخلق، وأكثر هذا القسم من المشركين الذين كانوا يعبدون الأوثان، والذين كانوا يؤلفون أغلب عرب الحجاز. وما هو جدير بالملاحظة والاهتمام أن المشركين أنفسهم، على الرغم من اعتقادهم المتين في مقدرة الأوثان، لم يرد عن أحد منهم أنه عزا الخلق إلى صنم معين أو إلى الأصنام مجتمعة بل إنهم كانوا يقرّون بأن الله هو الذي أنشأ الكون، وخلق الناس.

ويمكننا، للبحث في الشعر عن موقف الإنسان العربي من قضية الخلق، أن نتعرض من خلاله لخلق الكون عامة، ثم ننتقل إلى الأشعار التي ذكرت خلق الإنسان بجسمه وروحه، لعلنا بذلك نكون صورة واضحة لرؤية متكاملة في هذا المجال.

■ أولاً، خلق الكون:

لقد شغلت قضية الخلق كثيراً من أفراد الأمم القديمة ومفكريها، ولم يكن الإنسان العربي بمنأى عن تلك القضية، فلا ريب أنه اهتم بنشأة الكون ومنشئه، وتساءل عن الوجود وصانعه، غير أن الديانات السماوية حوله، في أغلب ظننا، قد أبعدته عن الوقوع في الحيرة، وساعدته على عدم الضياع في متاهات الأفكار للبحث عن الموجد الأول أو العلّة الأولى، وذلك حين أكدت له وجود إله كبير، نسبت إليه خلق العالم، بسمائه وأرضه وكائناته.

وهذا ما جعلنا نجد في الشعر الذي عرض للخلق أن الفرد في العصر الجاهلي قد اطمأن، في أكثر الأحيان، إلى خلق الله للكون اطمئناناً تاماً، من غير إنكار أو مجاملة في قدرته على ذلك. وقد عبر الشعراء عن هذا الاعتقاد والتسليم به، حتى إننا لانكاد نرى أحداً منهم يناقضه، أو يخرج عنه.

ولعل عدي بن زيد العبادي من أبرز أولئك الشعراء الجاهليين الذين ذكروا خلق الله للكون تفصيلاً، ولاشك في أن لاطلاعه على تعاليم ديانته النصرانية أثرًا كبيرًا في إلمامه ببدء الخلق، وإنشاء الخليقة(٢). فمن ذلك ماذهب إليه في شعره من أنه لم يكن يوجد في البداية إلا رياح وماء وظلمة، فكشف الله الظلام، وحسر الماء، وبسط الأرض، وجعلها في مقدار السماء، وكوّن الشمس، وأقامها حدًا، ليميز به الليل من النهار، وأتمّ خلق ذلك كله في ستة أيام، ثم بعد ذلك التفت إلى خلق البشر(٣):

اسْمَعْ حديثًا كما يوماً تُحدِّثُهَ   عن ظهر غَيْب إذا ما سائلَ سألا
أنْ كيف أبدى إلَهُ الخلق نِعْمَتَهُ   فينا وعَرَّفنا آياتِه الأوَلا
كانت رياحًا وماءً ذا عُرانيَةِ   وظُلْمَةٌ لم يَدَعْ فتقًا ولا خَلَلا(٤)
فأمَرَ الظُّلْمَةَ السَّوداء فانكشفتْ   وعَزَلَ الماءَ عمّا كانِ قد شَغَلاَ
وبَسَطَ الأرض بَسْطًا ثم قَدَّرَها   تحت السماءِ سواءً مثْلَ ما فَعَلاَ
وجعل الشمسَ مصْرًا لاخفاءَ بهِ   بين النهارِ وبين الليل قد فَصَلا(٥)
قَضى لستةِ أيامِ خَلِيقَتَهُ   وكان آخرَها أنْ صَوَّرَ الرَّجُلا

وما ذكره عدي من خلق الكون شبيه بما ورد في «العهد القديم» حول بدء الخليقة؛ إذْ جاء فيه: «في البَدْء خلق اللهُ السموات والأرض. وكانت الأرض خَرَبَة وخالية، وعلى وجه الغَمْر ظُلمةٌ، وروحُ الله يرفُ على وجه المياه. وقال اللهُ: لِيكنْ نورٌ، ورأى الله النور أنه حسنٌ، وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النورَ نهارا، والظُّلمة دعاها ليلا. .»(٦). وجاء فيه أيضًا: «فأُكملت السموات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل»(٧).

ولعل في هذا التشابه ما يرجّح لدينا أن عديا، عند نظمه للأبيات السابقة، قد اعتمد اعتمادًا كبيرًا على ثقافته الدينية، وما تناقلته من وصف لبداية الخلق.

وكان أميَةَ بن أبي الصلت أيضًا من الشعراء الذين عُنوا في أشعارهم ببدء الخليقة، بل إن القدماء قد أحلّوه مكانة مميزة في هذا المجال، حين أشاروا إلى أنه اهتم بذكر خلق السماوات والأرض في شعره اهتمامًا لم يسبقه إليه أحد من الشعراء في عصره، ويرون أن ذلك يعود إلى اطلاعه الواسع على الديانات حوله(٨). وقد أشرنا من قبل إلى أنه كان من أبرز حنفاء الجاهلية الذين دعوا إلى عبادة الله الواحد، ولاشك في أنه آمن إيمانًا تامًا بأن الله هو الذي فطر الكون، ورفع السماء، وبسط الأرض.

ونجد تلك الرؤيةَ جليّةَ في شعره؛ إذ يرى أن من أعظم الدلائل على قدرة الله خلقَه لليل والنهار، وتقديَره الدقيق لوقتيهما، وجعله الشمس ضياء تنير أرجاء الأرض(٩):

إنَ آيات ربنا ثاقبات ... ما يُماري فيهنّ إلاّ الكفُورُ
خَلَقَ الليلَ والنهارَ فكل ... مُستَبِينٌ حسابُهَ مقدُورُ
ثم يجلو النهارَ ربٌ رحيم ... بمَهَاةٍ شعاعُها منشور(١٠)

ويرى أمَيَةَ أيضًا أن الله، حين خلق الأرض، جعلها مصباً لماء السماء الذي به حياتها وحياة من يعيش عليها، مشيرًا إلى أن الأرض بمنزلة الأم للبشر، لأنها تمدّهم بأسباب العيش والبقاء، وعند الممات تحتضنهم في جوفها، وعلى هذا فهم مقيدون بها من ولادتهم إلى موتهم. وكذلك خلق الله السماء أطباقًا عدة، فأبدع في خلقها أتم الإبداع، إذ جعلها ملساء الأديم، لايقدر على اعتلاء متنها أي كائن، مهما كان صغيرًا وضئيلاً(١١):

والأرضُ نوَّخَهـــا الإلهُ طَرُوقَةً   للمـــاءِ حـــتَّى كلُّ زَنْدٍ مُسْفَدُ(١٢)
والأرضُ مَعْقلُنا وكـــانت أمَّنا   فـيـهـا مـقـابرُنا وفـيـهـا نولدُ
فـيـهـا تلامـيـذ علي قَذْفـاتِهـا   حُبِسوا قيامًا فالفرائصُ تُرْعَدُ(١٣)
يـفـبنى الإله عليهم مـحـصُوفـةً   خلقـــاء لاتبلى ولا تتـــأوّدُ(١٤)
فلوَ أنَّه تَحْذُ والبُرامُ بمَتْنِهـــــا   زَل البُرامُ عن التي لاتقْـــرَدُ(١٥)

وواضح أن معاني الشاعر وصوره منتزعة من البيئة البدوية التي تحيط به، فالأرض كناقة أو سائمة قد تهيأت لفحلها، والأرض أم للناس، ويبدو أنه قد استمد هذا المعنى مما هو شائع بين العرب، كما أشار إلى ذلك ابن قتيبة حين قال: «وكانت العرب تسمى الأرض أمًا، لأنها مبتدأ الخلق، إليها مرجعهم، ومنها أقواتهم وفيها كفايتهم»(١٦). وفضلاً عن ذلك ماصوره أمية من ملاسة السماء، وعدم قدرة القُراد على اعتلاء متنها، على الرغم من أنها تستطيع اعتلاء متون الإبل والثبات عليها، مهما أسرعت أو تقلقلت في سيرها. وهذا مايجعل أمية في شعره، على الرغم من تأثره بأهل الكتاب، أقرب إلى التعبير عن حياة البادية من عدي بن زيد، في شعره السابق الذي غلبت عليه معاني «سفر التكوين» وصوره.

وثمة شعراء آخرون، ممن اعتنقوا إحدي الديانات السماوية، وذكرت لهم أشعار، تتضمن إشارات إلى خلق الله للسماء والأرض. فمن ذلك ما نُسب إلى وَرَقَة بن نَوْفل من شعر، يخاطب فيه قريشًا، مسفّها ديانتهم وإشراكهم، ومشيرا إلى خلق الله للسماء وما فيها من أبراج(١٧):

أرَجِّي بالذي كَرِهوا جــمـــيـــعًا   إلى ذي العـرض إنْ سَفلُوا عُروجَا
وهل أمـرَ السفَّـالةِ غـيـرُ كُفـرٍ   بمَنْ يختـــارُ مَنْ سَمَكَ البُرُوجَا

وقريب من هذا أيضًا ما نُسب إلى زيد بن عمرو بن نُفَيل من شعر يصف فيه إيمانه بالله الذي خلق الأرض وسوّاها مستوية على المياه، وأقام عليها الجبال، ثم أرسل إليه الماء الزلال(١٨):

وأسلمتُ وجهي لمَنْ أسلمتْ   له الأرضُ تحملُ صخرًا ثقالا
دَحاها فلمَّا رآها استوتْ   على الماءِ أرسى عليها الجبِالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ   له المُزْنُ تحملُ عذْبًا زُلالا
إذا هي سِيقَت إلى بلدةٍ   أطاعتْ فصَبَّتْ عليها سِجالا

ولم يقتصر الاعتقاد في خلق الله للكون على الشعراء الذين اعتنقوا الديانات السماوية، وإنما امتد ليشمل عددًا وفيرًا من الشعراء الجاهليين، ومعظمهم من عبدة الأوثان، الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى. غير أن أولئك الشعراء لم يتحدثوا في أشعارهم كثيرًا عن خلق الله للكون، كما هو شأن أمية بن أبي الصلت مثلاً، وإنما جعلوا ذلك، في أحيان كثيرة، ضمن مقدرته العظيمة، التي رأينا الإشارة إليها مرارًا، لدى كلا منا على اعتقادهم في الله.

ومع ذلك فثمة أشعار متفرقة أشار أصحابها مباشرة إلى خلق الله للكون، وخاصة خلقه للسماء والأرض. فمن ذلك مانجده لدى باعث بن صُرَيْم من شعر يقسم فيه بالله فاطر السماء، وخالق القمر، لينتقمن انتقامًا شديدًا من أعدائه(١٩):

إنّي ومَنْ سَمَكَ السماء مكانَها   والبدر ليلَة نِصفِها وهِلالِها(٢٠)
آليتُ أثْقَفُ منهمُ ذا لِحيةٍ   أبدا، فتنظُرُ عينةٌ في مالِها(٢١)

وشبيه بذلك أيضًا قَسَمُ الأعشى بالله الذي خلق الأيام والشهور وجعلها مواقيت للناس، ليؤكد أنه شجاع مقدام إذا استعرَت الحرب واشتدّ القتال(٢٢):

فلعَمْرُ مَنْ جعلَ الشهورَ علامةً   قَدَرًا فبَيَّنَ نِصفَها وهلالَها
ماكنتُ في الحرب العَوانِ مُغَمَّراً   إذ شَبَّ حَرٌّ وَقُودِها أجزالَها

ومن هذا القبيل أيضًا ما نجده من اعتقاد أبي عَزَّة الجُمَحيّ في أن الله مالك الكون وسيده، وهو الذي شفاه من برصه، ومنع عنه الموت، بعد أن حاول الانتحار(٢٣):

لاهُمَّ ربَّ وائـــــــل ونَهْدِ   والتَّهَمـاتِ والجـبـال الجُرْدِ(٢٤)
وربَّ مَنْ يـــرمـــي بيَاضَ نَجْدِ   أصبحتُ عـبـداً لك وابنَ عَبْدِ(٢٥)
أبــرأتَتــي مـــن وَضَحٍ بــجِلْدِي   من بعـدِ مـا طَعَنْتُ في مَعَدِّي(٢٦)

ويشير عبدالله بن الزِّبَعْرى إلى أن الله حفظ مكة، ومنع عنها كيد الكائدين، فهو ربّ السماء والأرض، ولا يزال يرعاها منذ أقدم الأزمنة، ولعله يوحي إلى زمن خلقه لها(٢٧):

تَنَكَّلُوا عن بَطْنِ مكَّةَ إنَّهــــــا   كـانت قـديمًا لايُرامُ حَرِيمُهـا
كـانت بهـا عـادٌ وجُرْهُمُ قـبلَهُمْ   والله، من فوق العبادِ، يُقيمُها

وهكذا يتضح لنا، مما مر بنا من شعر، أن الاعتقاد في خلق الله للكون كان ظاهرة عامة في العصر لجاهلي، حتى إنّ الشعراء المشركين سلّموا بذلك الاعتقاد، ولم يصدر عن أحدهم مايناقضه، ونجد القرآن الكريم يؤكد ذلك تأكيدًا تامًا حين يشير إلى إقرار المشركين بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، وذلك في قوله تعالى، مخاطبًا نبيّه محمدًا(ﷺ): ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.(٢٨) وكذلك قوله تعالى:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ . . . ﴾(٢٩) وجاءت الصيغة نفسها في قوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٣٠).

وإضافة إلى ذلك يبدو أن الجاهليين عامة كانوا في أحاديثهم العادية يشيرون إلى خلق الله للعالم، وخاصة من خلال ماتضمنته أيمانهم؛ فقد نسب اليهم أنهم كانوا يقسمون بالله الذي رفع السماء وبناها في قولهم: (لا والذي سمك السماء)(٣١) وبالذي خلق الأرض ومدّها، في قولهم: (لا والذي دحا الأرض)(٣٢)، و(لاوسامكِها، لا وباسِطِها، لا وماهدِها)(٣٣).

كما كانوا يحلفون بالله الذي أنشأ السحاب، وأجرى الرياح وأسكنها، والذي سيّر البحر عجاجًا متلاطما، في قولهم: «لا ومنشئ السَّحاب، لا ومجري الرياح، لا ومميتها.. لا ومجري البحر»(٣٤)، وغير ذلك من الإيمان التي تدل على اعتقادهم في أن الله هو الذي فطر الكون وسائر مظاهر الطبيعة.

وذلك كله يؤكد مابرز في الشعر من موقف الإنسان العربي تجاه قضية خلق العالم، ذلك الموقف الذي عبّر عنه الشعراء، حين رأوا أن خلق الكون عمل أبدعه الله، واختص به، ولم ينسبوه إلى أحد سواه. وقد تفاوتت رؤيتهم للخلق وإذ فصّل بعضهم حينا، وأشار إليه بعضهم إشارة عامة حينًا آخر، وسنجد أن الأمر نفسه ينطبق على رؤيتهم لخلق الإنسان.

■ ثانيًا، خلق الإنسان:

لقد صار بيّنا لنا، من خلال الشعر الجاهلي، أن الإنسان العربي اعتقد في أن الله خالق الكون، ولا شك في أنه اعتقد أيضًا في أن الله خلق البشر وسائر الكائنات الأخرى. وقد عبّر عدد من الشعراء عن هذا الاعتقاد؛ سواء أكانوا معتنقين لإحدى الديانات السماوية، كالحنيفية واليهودية والنصرانية، أم كانوا مشركين من عبدة الأوثان؛ وإذ اتفقوا جميعًا على أن الله وحده القادر على خلقهم، وبرز ذلك جليًا حين تحدثوا عن خلق الله للإنسان حديثًا مباشرًا حينا، أوعند ما أشاروا إليه بإشارات عارضة حينًا آخر.

وكان عدي بن زيد، في قصيدته التي عرضنا لقسم منها في الفقرة السابقة، أكثر أولئك الشعراء ذكرًا لخلق الإنسان، وتفصيلاً فيه؛ إذ يصور فيها خلق الله لآدم أبي البشر من الطين، وكيف نفخ فيه الروح وخلق له من ضلعه زوجًا له، هي حواء. ثم يشير إلى إسكان الله إياهما في الجنة، ونهيهما عن أكل ثمر شجرة معينة من أشجارها، وكيف أغوتهما الحية فأكلا منها، مما أدى بهما إلى سخط الله، فضلاً عن لعنه للحية، وجعلها تزحف على بطنها بعد أن كان لها أرجل طويلة، وجرم كبير(٣٥):

قضى لستة أيام خليقتهُ   وكان آخرها أن صوَّرَ الرَّجُلا
دعاه آدمَ صوتًا فاستجابَ له   بنَفْخَةِ الرُوح في الجسم الذي جبَلا
ثُمَّتَ أورثَهُ الفِردوسَ يَعْمُرُهَا   وزوجَهُ صنعةً من ضلعِهِ جعَلاَ
لم يَنْهَهُ ربه عن غيرِ واحدةٍ   من شَجَرٍ طَيِّبٍ: أنْ شَمَ أو أكَلا
فكانتِ الحيَّةُ الرَّقْشاءُ إذْ خُلقَتْ   كما تَرَى ناقةٌ في الخَلْقِ أو جَمَلا
فعَمَدا للَّتي عن أكلها نُهِيَا   بأمرِ حوَّاء لم تأخذْ له الدَّغَلا(٣٦)
كلاهما خاطَ، إذْ بُزًا لَبُوسَهُمَا،   من ورق التِّينِ ثوبًا لم يكنْ عُزَلا
فلا طَهَا اللهُ إذْ أغْوَتْ خَلِيفَتَهُ   طولَ اللَّيالي ولم يجعل لَهَا أجَلا(٣٧)
تمشي على بَطْنِهَا في الدَّهرِ ما عَمَرِتْ   والتُّرْبُ تأكلُهُ حَزْنًا وانْ سَهُلا

وخبر خلق الله لآدم وحواء، وإغواء الحية لهما، وارد معروف لدى اليهود والنصارى؛ ووضعه في الجنة، ثم نهيه عن أكل شجرة معرفة الخير والشر، ثم أخذه ضلعًا من أضلاعه وخلقه منها امرأة زوجة إياها(٣٨). وكذلك إغواء الحية لحواء بأكل الثمر من شجرة المعرفة، وأكل آدم وحواء منها، وانتباههما لعريهما، مما جعلهما يخيطان مآزر لهما من ورق التين(٣٩). وما كان من لعن الله للحية، إذ جعلها تزحف على بطنها، وجعل أكلها ترابا(٤٠).

ونجد أمية بن أبي الصلت معتقدا أيضًا في أن الله خلق الأرض وخلق البشر منها، كما يبدو ذلك ، واضحًا في قوله(٤١):

هي القَرارُ فما نبغى بها بدلاً   ما أرحمَ الأرضَ إلاَ أنَّنا كُفُرٌ
منها خُلِقنا وكانت أمنا خُلِقَتْ   ونحن أبناؤها لو أنَّنا شُكُرٌ

وكذلك نلمح لدى أمية معرفة بإغواء الحية لآدم، وما آلت إليه، بعد أن لعنها الله، فألصقها بالأرض وجعلها من الزواحف، وذلك حين يتحدث عن إخراج الحاوي لها، بما يتلو عليها من عزائم وأسماء الله(٤٢):

إذا دُعِينَ بأسماء أجَبْنَ لها   لنا فِثٍ يَعْتَرِيه اللهُ والكَلِمِ(٤٣)
لولا مخافةُ ربٍّ كان عذَّبَها   عَرْجاءَ تَظْلَعُ في أنيابها عَسَمُ(٤٤)
وقد بلَتْهُ فذاقتْ بعضَ مَصْدَقِهِ   فليس في سَمْعِها من رَهْبَةٍ صَمَمُ(٤٥)

ويبدو أنه كان شائعًا بين العرب أن الناس جميعًا ينحدرون من أب واحد، هو آدم، الذي خلقه الله، ثم جعل سائر البشر من ذريته، غير أن هذا الأمر، في أغلب الظن، لم يحتفل به الشعراء كثيرًا؛ إذ لم يكن من صلب أغراضهم الفنية التي درجوا عليها، لذلك قلّت الإشارة إليهِ في الشعر، حتى غدت مقتصرة أحيانًا على ذكر اسم آدم أو مايدل عليه. ولعلنا نجد شيئًا من التفصيل فيما نُسب إلى عبدِ لطابِخَة بن ثعلب من قُضاعة حين قال(٤٦):

وأنت القديمُ الأوّل الماجدُ الذي   تَبَدَّأتَ خلقَ النَّاس في أكتُمِ العَدَمْ(٤٧)
وأنت الذي أحلَلتَنِي غَيْبَ ظُلْمَةٍ   إلى ظُلْمَةٍ من صُلْبِ آدمَ في ظُلَمْ

وأشار أُفنونٌ التغلبيُّ إلى آدم، في شعر يعاتب فيه قومه بني حُبَيِّب الذين تخلّوا عنه، ولم يدركوا مكانته ومنزلته في ردع الخصوم وإسكات المتفاخرين عليهم(٤٨):

أبلغْ حُبَيِّبًا وخَلِّلْ في سَرَاتِهِمُ   أنَّ الفؤادَ انطوى منهم على حَزَنِ
قد كنت أسبِقُ من جاروا على مَهَلٍ   من وُلْدِ آدمَ ما لم يخلعوا رَسَنِي(٤٩)

وقد وردت إشارات إلى آدم، لدى بعض الشعراء، لكنها عبرت عنه بـ «عرق الثَّرى»، ويبدو أن ذلك يعود إلى ماهو معروف وشائع من أنه الأصل القديم الذي خلق من طين. فمن ذلك ما ذكره مُتَمِّم بن نُوَيْرة في شعر يرثي به اباءه وأجداده(٥٠):

فعَدَدْتُ آبائي إلى عِرقِ الثَّرى   فدعوتُهم فعلمتُ أنْ لم يَسْمَعُوا
ذهبوا فلم أدركْهُمْ ودَعَتْهُمُ   غُولٌ أتَوْها والطريقُ المَهْيَعُ(٥١)

وعلى هذا الغرار فُسِّرَ بيت امرئ القيس الذي يؤكد فيه أن أصله ثابت راسخ، وأن نسبه مُغرق في القدم(٥٢):

إلى عِرْقِ الثَّرى وَشَجَتْ عُروقي   وهذا الموتُ يَسلُبُنِي شبابي

وفضلاً عما أبرزه الشعراء، من اعتقاد العربي في أن الله هو الذي خلق الإنسان الأول، فقد ألمح بعضهم إلى كيفية تكْون الإنسان في الرحم، بدءا من كونه ماءً ونطفة إلى أن يغدو بشراً سويا. وهذا مانجده لدى السموأل حين قال(٥٣):

نُطفَةٌ مامُنِيتُ يومَ مُنِيتُ   أُمِرَتْ أمْرَها وفيها وُبيْتُ(٥٤)
كَنَّها اللهُ في مكان خَفِيٍّ   وخَفِيٌّ مكانُها لو خَفِيتُ
أنا مَيْتٌ إذْ ذاك ثُمَّتَ حَيٌّ   ثم بعد الحياة للبعْثِ مَيْتُ

ولا غرابة بعد ذلك أن نجد بعض الشعراء يدعو إلى عبادة ذلك الإله الخالق، لما يتصف به من عظمة، ولما له من مقدرة على تكوين الإنسان في أجمل شكل وأحسن هيئة. ولذلك رأى وَرَقَةُ بن نوفل أن الله جدير بالعبادة، وحري بأن ينفرد بها دون سواه(٥٥):

لقد نَصَحْتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم   أنا النذيرُ فلا يَغْرُرْكُم أحَدُ
لاتَعْبُدُنَّ إلهًا غيرَ خالِقكُم   فإنْ أبيتُم فقولوا بيننا حَدَدُ(٥٦)

كما يرى أيضاً أن الله يرعى عباده الذين خلقهم دائماً، فيستمع لتضرعاتهم، ويستجيب لدعائهم، مما يجعل كثيراً منهم يلهجون بألوهيته وربوبيته، ويؤدّون العبادات شكراً لخالقهم وموجدهم(٥٧):

أدِينَ لرب يستجيبُ ولا أرَى   أدينُ لِمَنْ لايسمعَ الدُهر داعيا
أقول، إذا صَلَّيتُ في كل بِيْعَةِ :   تباركت قد أكثرتُ باسمك داعيا(٥٨)

ولا ريب في أن معظم تلك الأشعار السابقة كانت تعبيراً عن تلك الفئة من العرب التي تأثرت بالديانات السماوية، وكان أغلب أولئك الشعراء من هذه

الفئة. وقد رأينا أن تأثرهم بالديانات كان متفاوتًا في أشعارهم، وإن كانوا جميعًا قد انطلقوا في نظمهم من الإيمان بالإله الخالق الذي أوجدهم من العدم، وكوّنهم بشرًا بعد أن كانوا في غياهب المجهول.

ولكن لايعني هذا أن الفئة الثانية المشركة، وهي سائر العرب، قد أنكرت أن يكون الله هو الخالق، أو أنها عزت خلق الناس إلى الأوثان، وإنما كان شأنها شأن الفئة الأولى في اعتقادها أن أمر خلقها وايجادها يعود إلى الله؛ وذلك على الرغم من أنها لم تكن تخلص له العبادة، ولم تكن تفرده بالألوهية، إذ كانت تشرك به الأوثان، وتعدّها آلهة أخرى معه. وقد ظهرت إشارات متفرقة من الشعراء المشركين، تعبر عن ذلك الاعتقاد في أن الله خالق البشر وفاطر الكائنات.

فمَن ذلك ما مدح به الأعشى أحدهم بأنه لايخشى خوض الحروب، لأنه يعلم أن الذي خلق الإنسان قدّر أجله(٥٩):

وعلِمتَ أن النَفْسَ تلقى حتفَها   ما كان خالقُها المليكُ قَضَى لها

كما اعتقد قيس بن الخطيم في أن الله، حين خلق محبوبته، جعل الإشراق ملازمًا لها، وحرّم على الظلمة أن تحجبها(٦٠):

وقَضَى اللهُ حين يخلقُها الخا   لِقُ ألاّ يَكُنَّها سَدَفُ

ورأى لبيد أن الله الذي خلق الخلق هو الذي جعل أخلاق الناس متفاوتة متباينة، لذلك فإنّ على المرء أن يسلم بهذه الحقيقة، ولا يكابر فيها(٦١):

فاقنع بما قَسَمَ المليك فإنما   قَسَمَ الخَلائقَ بيننا علاّمُها

ونجد اعتقاداً مماثلاً في أن الله خالق البشر لدى قُرَيط بن أنيف، حين استهزأ بقومه الذين يرضون بالذل والهوان، فيحسنون لَمْ أساء إليهم، ويسالمون مَنْ عاداهم(٦٢):

لكنَّ قومي وإنَ كانوا ذوي عددٍ، ليسوا من الشرَّ في شيء وإن هانا
يجزون من ظَلْم أهل الظُّلْمِ مغفرةً ومن إساءةِ أهلِ السُّوءِ إحسانا
كأنَّ ربَّك لم يخلُقِ لِخَشْيَتِهِ سواهمُ من جميع الناس إنسانا

وقد أكد لنا القرآن الكريم ذلك الاعتقاد أيضاً، حين بيَّن أن المشركين كانوا يسلِّمون تسليما تاماً بأن الله خلق حياتهم، وأوجدهم في هذه الدنيا. وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(٦٣).

وعلاوة على ما مر بنا من أشعار، تُجمع على إيمان الإنسان العربي بأن الله خالق البشر، فإن ثمة أقوالاً نُسبت إلى الجاهليين عامة، تتضمن أيماناً وأقساماً، كانت تجري على ألسنتهم في أحاديثهم وفي أمور حياتهم، تشير كلها إلى اعتقادهم في خلق الله لهم؛ فكانوا يقولون، مثلاً، «لا والذي خلقَ الرجالَ على هذه الخلْقة»(٦٤)، وكذلك قولهم: «لا وفاطرِ الأشباح»(٦٥)، ويقصدون بذلك خالق الأشخاص، كما أقسموا بالذي «شقّ الرجال للخيل»(٦٦) وبالذي «شقهن خمسًا من واحدة»(٦٧)، ويقصدون أن الله خلق الأصابع من يد واحدة، إلى غير ذلك من الأيمان التي تؤكد اعتقادهم في خلق الله للإنسان.

ومما لاجدال فيه أن خلق الله للإنسان لايقتصر على الجسم فقط وإنما يشمل روحه أيضاً، وإذا كان الجاهليون لم يتعمقوا كثيرًا في البحث عن ماهية الروح، كما يظهر من أشعارهم وأخبارهم، فإن معظمهم، في أكبر الظن، قد اتفقوا على أن الجسد شيء، والروح شيء آخر، وأنه بخروج الروح من الجسد، ومفارقتها له، يحدث الموت(٦٨)، ونلمح صدى ذلك لدى بعض الشعراء.

فمن هؤلاء عدي بن زيد العبادي، وقد مرت بنا إشارته إلى أن حياة آدم عليه السلام بدأت منذ أن نفخت فيه الروح، ولولا ذلك لظل الجسد الذي جبله الله بلا حياة(٦٩):

دعاه آدمَ صوتًا فاستجاب له   بنفخَةِ الرُوح في الجسم الذي جَبَلاَ

ومنهم أيضًا امرؤ القيس الذي تساءل عن مصير الروح، بعد أن فارق الجسم، وتدع صاحبه جثة هامدة: إلى أين ستؤول؟(٧٠):

ليتَ شِعْرِي ولَيْتِ نَبْوَةً   أين صارَ الرُوحُ إذْ بانَ الجَسَدْ؟

أما عن ماهية الروح لدى الإنسان العربي فيبدو أنه كان شائعًا، لدى كثير من الأفراد، أن الروح شيء لطيف غير عادي، وهي مصدر القوى المدركة في الإنسان، فضلاً عن أنها مصدر الحياة(٧١). ويُرَجَّح أنهم كانوا يعدّونها كالهواء في داخل الجسم، كما نجد ذلك واضحًا لدى عَبِيد بن الأبرص في قوله(٧٢):

هل نحن إلاّ كأجساد تمرُّ بها   تحت الُراب وأرواحِ كأرواح(٧٣)

ومن الجدير بالاهتمام، في هذا المجال، أن الشعراء لم يفرّقوا غالبًا بين الرُوح والنفس، وإنما عدُّوهما، في أكثر الأحيان، شيئًا واحدًا، وهذا الاعتقاد لايخالف ما ذهب إليه معظم القدماء عند كلامهم على الروح والنفس، فقد نصوا على عدو التمييز بينهما(٧٤). ونجدتأكيد ذلك لدى امرئ القيس حين رأى أن الموت لابد أن يحقق به، فيستل منه نفسه أو روحه، ويرديه جسدًا لاحياة فيه، فُيسرَع به ليُدس في التراب(٧٥):

إلى عِرْقِ الثَّرى وَشَجَتْ عُروقي   وهذا الموتُ يَسلُبُنِي شبابي
ونفسي سوف يَسْلُبُها وجِرْمي   فيلْحِقُني وشيكًا بالتُّراب(٧٦)

وعلى هذا الغرار لم يميِّز لبيد بين الروح والنفس، إذْ اعتقد أن بقاء الروح في الجسم بمنزلة الشيء المستعار الذي لابد أن يُعاد إلى صاحبه بعد قضاء الحاجة منه(٧٧):

هلِ النَّفْسُ إلاَّ مُتْعَةٌ مُسْتَعارَةٌ   تُعارُ فتأتي رَبُّها فَرْطَ أَشْهُرِ

وإذا كانت النفس والروح شيئًا واحدًا فلا ريب أنه بمفارقة النفس للبدن يُضحى الجسم ميتًا، لاحياة فيه؛ بحسب ما رآه الأعشى، حين وصف مايلاقيه الغوّاص من مشاق وأهوال، في سبيل استخراج لؤلؤة جاثمة في أعماق البحر(٧٨):

في حَوْم لُجَّة آذيٍّ لــهُ حَدَبٌ   مَنْ رامَها فارقَتْهُ النَّفْسُ فاعتُلِقا(٧٩)

وما دام الإنسان مؤلفًا من جسم وروح فإن مايصيب الجسم يؤثر غالبًا في الروح، وهذا مانجده لدى الأعشى أيضًا؛ إذْ قادته تجربته إلى أن تأثير الخمر لايقتصر على الجسم فقط، وإنما يتعدّاه ليشمل نفس الإنسان وروحه؛ ذلك أن التأثير بين الجسم والروح متبادل، وأن مايسرّ أحدهما يسرْ الآخر، وما ينغّص على أحدهما ينغّص على الآخر أيضًا(٨٠):

لَعَمْرُكَ إنَّ الرَّاحَ إنْ كنتَ سائلاً   لَمُخْتَلِفٌ غُدَيُّها وعَشَاتُها
لنا من ضُحاها خُبْثُ نَفْسٍ وكآبَةٌ   وذِكرى هُمومٍ ماتَغِبُّ أذَاتُها(٨١)
وعند العَشِيِّ طِيبُ نفْسٍ ولَذَّةٌ   ومالٌ كثيرٌ غُدْوَةً نَشَواتُها

ورأى عُمارة بن الوليد رأيًا مماثلاً في التأثير المتبادل بين الروح والجسم، حين جعل الروح تتأثر بالخمر وتنتشي، على الرغم من رقّتها ولطافتها وشفافيتها، معبرًا عنها بالنفس شأن الشعراء الآخرين(٨٢):

وأبيَضُ لا وانٍ ولا واهِنُ السُّرى   صَبَحْتُ إذا أولى العصافيرِ صرَّتِ(٨٣)
فقامَ يَجُرُّ البُرْدَ لَوَانَّ نفسَهُ   بكفّيْهِ من طولِ الحُمَيَّا لَخَرَّتِ(٨٤)

ونخلص من ذلك كله إلى أن الإنسان العربي، كما يبرزه لنا الشعر، نظر إلى ذاته على أنه مخلوق على هذه الأرض، وأنه مكوّن من روح غير مادية وجسد محسوس، واقتنع بأنه انحدر من سلالة آدم الذي خلقه الله من تراب، وبث فيه الروح، ثم تتابع نسله وذريته إلى ذلك الحين. وقد آمن بذلك، في معظم الأحوال، إيمانًا مطلقًا، ولم يخرج عن ذلك الإيمان، مهما كانت عقيدته وديانته.

٣ - الطُّوفان :

تتصل حادثة الطُّوفان اتصالا وثيقًا بالخلق وبدء الخليقة، وتتعلق بتجدد حياة المخلوقات على وجه الأرض؛ ذلك أن الطُّوفان قضى على البشر وأغرق الكائنات الأخرى، ولم يتبق من الأحياء، بحسب الأخبار، إلا من نجا على سفينة نوح عليه السلام ويبدو أن هذه الحادثة، كانت شائعة معروفة عند العرب منذ القديم، كما كانت معروفة عند غيرهم من الأمم القديمة كالسومريين والبابليين والعبرانيين(٨٥).

ولا يستغرب أن تكون قصة نوح والطوفان قد تناهت إلى أسماع الإنسان الجاهلي عامة، ولاسيما أن بعض الشعراء قد أشاروا في قصائدهم إليها، وهم بين مسهب في تفاصيلها، كأمية بن أبي الصلت، وبين ملمّ إلمامًا عابرًا كعدد من الشعراء الآخرين.

فأمّا أمية فإنه، على مايبدو من شعره، قد اهتم اهتمامًا كبيرًا بحادثة الطوفان، ولعله قد اطلع عليها لدى أهل الكتاب، وخاصة أن ثمة تشابهًا بين ما أورده في شعره عنها وبين ما ورد في التوراة حول الطوفان، كما في قوله(٨٦):

كَرَحْمَةِ نُوحٍ يومَ حلَّ بسَبْعَةٍ   لشِيعَتِهِ كانوا جميعًا ثمانيا
فلمّا استنارَ اللهُ تَنُّورَ أرْضِهِ   فَفَارَ وكان الماءُ في الأرض ساجِيا(٨٧)
تَرَفَّعَ في جَرْيٍ كأنَّ أطِيطَهُ   صَرِيفُ مَحالٍ يستعيدُ الدَّوالِيا(٨٨)
على ظهرِ جَوْنٍ لم يُعدّلراكبٍ   سُرَاهُ، وغَيْمٌ ألبسَ الماءَ داجِيا
فصارت بها أيامُها ثُمَّ سبعةٌ   وستُّ لِيالٍ دائباتٍ غَوَاطِيا(٨٩)
تَشُقُّ بهم تَهْوِي بأحسن إمْرَةٍ   كأنَّ عليها هاديا ونَواتِيا
وكان لها الجُودِيُّ نِهْيًا وغايةً   وأصبحَ عنه موجُهُ مُتَرَاخِيا(٩٠)

وما كان أصحابُ الحمامة خِيفَةً   غداةَ غدتْ منهمْ تَضمُّ الخَوافيا
رسولاً لهم واللهُ يُحكِمَ أمرَهُ   يُبيْنُ لهم : هل يُونَس التُّربُ باديا
فجاءتْ بقِطفِ آيةً مُستَبِينَةً   فأصبح منها موضُع الطِّين جاديا(٩١)

ويبدو التشابه تاماً مع التوراة في إشارته إلى الحمامة خاصة؛ إذ ورد فيها أن نوحاً عليه السلام أرسلها أول مرة فلم تجد مقرّاً لها: «فلبث أيضاً سبعةَ أيام أخَر، وعاد فأرسل الحمامة من الفُلْك، فأتت إليه الحمامة عند المساء، وإذا وَرَقَةُ زيتون خضراء في فمها، فعلم نوح أن المياه قد قلَّت عن الأرض»(٩٢). وقد فصّل أمية الحديث عن الطوفان في موضعين آخرين من شعره أيضاً(٩٣)، مما يؤكد مايولي تلك الحادثة من عناية واهتمام.

ونجد لدى الأعشى دراية بقصة الطوفان، وما كان من شأن السفينة التي صنعها نوح عليه السلام بأمر من الله، كي ينجو بها هو ومَنْ آمن معه، وذلك من خلال مديحه لإياس بن قَبِيصة الطائيّ(٩٤):

جزى الإلهُ إياساً خيرَ نعمته   كما جزى المرءَ نوحاً بعد ما شابا
في فُلْكِهِ إذْ تَبَدَّاها ليصنعَها   وظلَّ يجمع ألواحاً وأبوابا(٩٥)

وكذلك أشار النابغة الذبياني إلى نوح عليه السلام، وإلى شهرته بالأمانة، مما يدفع على الاعتقاد في انه كان يعرف خبر الطوفان أيضاً؛ إذ يقول مادحاً النُعمان ابن المنذر(٩٦):

فألفَيْتُ الأمانةَ تَخُنْها   كذلك كان نُوحَ لايَخُونُ

وذكر وَرَقَةَ بن نَوْفل في شعره جبل الجُودِيْ الذي رست عليه سفينة نوح عليه السلام، بعد أن انتهى الطوفان، وانحسر الماء عن الأرض، وذلك في قوله(٩٧):

سُبحانَ ذي العرشِ سُبحاناً نعوذُ به   وقبلُ قد سبَّح الجُوديُّ والجُمُدُ(٩٨)

ولعل مايزيد الباحث قناعة بأن حادثة الطوفان كانت معروفة شائعة بين العرب الجاهليين هو ما ورد في أمثلتهم السائرة من ذكر لنوح عليه السلام، وإشارة إلى إرساله الغراب من السفينة، قبل أن يرسل الحمامة، وذلك لمعرفة الحال الذي آل إليه الطُّوفان، فكان أن عثر الغراب على جيفة، فوقع عليها، وتغافل عن أمر نوح، فضرب به المثل في الإبطاء، وقيل: «أبطأ من غُرابِ نوحٍ»(٩٩)

ويذكر في هذا المجال أيضاً، ما ورد في بعض الروايات، من زعم بأن عدداً من الأصنام، التي كان يتعبّد لها المشركون، ترجع إلى زمن نوح عليه السلام، وهي: وَدّ، وسَوَاعُ، ويَعُوقُ، ويَغُوثُ، ونَسَرٌ، وأن تلك الأصنام قد حملها الطُّوفان من موطن نوح إلى ساحل جدة بالجزيرة العربية، حيث عُثر عليها، فأخذت، ووزعت على القبائل(١٠٠).

واستنادا إلى ذلك فقد أصبحت معرفة الجاهلي بالطُّوفان أمراً لاشك فيه، وهذا مايجعل قصة الخليقة تكتمل لديه من بداية الخلق حتى نهاية الطوفان.

ومما مر بنا، من أشعار وأخبار، نجد أن الإنسان العربي قد تشكّل في ذهنه تصوّر محدد حول مبدأ الخلق والوجود، وتمثل ذلك في قناعته بأن الله هو الذي خلق السماء والأرض وما بينهما، وهو الذي أوجد الكائنات، وفي مقدمتها البشر، وهو أيضاً الذي أرسل الطوفان ليجدد به الحياة على الأرض. وكان الشعراء أبرز من عكس هذا التصوّر، لما تميّز به معظمهم من سعة اطلاع، وغزارة علم.

ولابد لنا، قبل أن نختم كلا منا على الخلق، من الإشارة إلى أن الإنسان العربي، في رؤيته التي شملت الاعتقاد في الله، والتسليم بأنه مبدئ الخلق؛ سواء أكان كوناً أم بشراً، والاقتناع بإحداثه للطُّوفان، ونشر الحياة بعده، قد حلّ مشكلة كبرى من مشاكل الفكر الإنساني، إذ لم تبق لديه حاجة إلى البحث عن علة الوجود. ولم لا؟ مادام قد اعتقد في أن الله هو الموجد للكون والبشر. وربما كانت

قناعته الفكرية هذه هي التي أبعدته عن مجالات الفلسفة ومنطقها، وجعلته قليل الغوص في مسائلهما، ولاسيما المتعلقة منها بعلة الوجود التي شغل بها الأفراد في أمم قديمة أخرى، وفي مقدمتها اليونان.

وثمة أمر آخر ينبغي لنا أن نذكره، وهو أن رؤية الإنسان للخلق عامة أتت غالبًا في أبيات شعرية متفرقة، ولم نجدها تنتظم في قصائد أو مقطوعات، نستثني من ذلك أشعار أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد اللذين عُرفا، منذ القديم، بتعرضهما لموضوع الخلق. ولعل السبب في قلة ورود موضوع الخلق في أغراض شعرية مستقلة يرجع إلى مادرج عليه الشعراء الجاهليون من أغراض محدودة كالمديح والفخر وغيرها، مما أبعدهم عن أن يدعوا في أشعارهم حيزًا رحبًا لغير تلك الأغراض، ومع ذلك فإنّ تلك الإشارات الشعرية، على قصرها، قد عكست بجلاء رؤية الإنسان العربي للخلق ونشأة الحياة.

• • •

الهوامش

(١) انظر مقانا «لله والإنسان في الشعر الجاهلي» في عدد سابق.

(٢) انظر أخباره في الحيوان: ١٩٧/٤، والشعر والشعراء: ٢٢٥/١، والاشتقاق: ص: ٢١٧، والأغاني: ٩٧/٢.

(٣) الديوان، ص: ١٥٨ – ١٥٩، وقد نسب البيتان الرابع والخامس إلى أمية بن أبي الصلت، انظر ديوانه: ص٤٦٠.

(٤) العُرانية: مدّ المسيل.

(٥) المِصْر: الحاجز بين الشيئين.

(٦) السفر التكوين، الإصحاح الأول: ١ – ٥.

(٧) المسفر نفسه، الإصحاح الثاني: ١ – ٢.

(٨) أنظر أخباره في هذا المجال: الحيوان: ٣٢٠/٢، والشعر والشعراء: ٤٥٩/١، والاشتقاق: ص٣٠٣، والأغاني: ١٢٠/٤.

(٩) الديوان : ص٣٩١، وله شعر في المعنى نفسه: ص٤٠٠ - ٤٠٢.

(١٠) المَهَاة : هنا، الشمس.

(١١) الديوان، ص: ٣٥٦ - ٣٥٧.

(١٢) نوّخها : أبركها. والطَّروقة : أنثى الفحل. والزُّنْد: خشبةٌ تُستقدح بها النار، ولايكون ذلك إلا بزند آخر، فجعل كلاً من الأرض والسماء كالزُّنْد. ومُسفَد منكح، من «أسفد يُسفِدُ».

(١٣) التلاميذ : الخدم والأتباع، ولعله أراد بهم النساك، لأنهم يأوون إلى الجبال والقُذُفات : جمع قُذُفة، وهي كل ما أشرف من رءوس الجبال.

(١٤) المخصوفة : المؤلفة من أطباق عدة. وتتأود: تتثنى وتتجعد.

(١٥) تحدو : تسير. والبُرام: القُراد، وهي دويبة تتعلق بالبعير ونحوه، تَقْرَد : من «قَرِدَ الشعرُ» إذا تجعَّد وتلبَّد بعضه على بعض.

(١٦) تأويل مشكل القرآن: ص: ٧٦.

(١٧) السيرة النبوية : ١/١٩٢، وخزانة الأدب: ٣/٣٩٢، وورد فيهما أنه كان نصرانيًا.

(١٨) السيرة النبوية : ١/٢٣١.

(١٩) الحماسة : ٢/٥٣٣.

(٢٠) سمك : رفع، ونصفها : الضمير عائد على السماء، وأراد انتصاف الشهر.

(٢١) المعنى أنه أقسم لايظفر بإنسان منهم إلا قتله، فلا تنظر عينه في قالها بعد ذلك.

(٢٢) الديوان، ص: ٣١.

(٢٣) طبقات فحول الشعراء : ١/٢٥٦ - ٢٥٧، والروض الأنف: ٦/٥٠.

(٢٤) لاهُمَّ : اللهم، والتهمات: جمع تَهُمَة، ويعني أرض تِهامة.

(٢٥) يرمي : هنا، يسافر، وبياض نجد: أرض مهلكه في بادية نجد، من سلكها هلك.

(٢٦) المَقَدّ : هنا، البطن.

(٢٧) السيرة النبوية : ١/٥٧ - ٥٨.

(٢٨) العنكبوت : الآية ٦١، وانظر تفسير ابن كثير : ٣/٤٢١.

(٢٩) لقمان : الآية ٢٥، وانظر تفسير ابن كثير: ٣/٤٥١.

(٣٠) الزخرف : الآية ٩، وانظر تفسير ابن كثير: ٤/١٢٣.

(٣١) أيمان العرب، في الجاهلية، ص: ٧.

(٣٢) المصدر نفسه، ص: ١٩.

(٣٣) المصدر نفسه، ص: ٢٢.

(٣٤) المصدر نفسه، ص: ١٩.

(٣٥) الديوان، ص: ١٥٩ - ١٦٠، وثمة إشارة أخرى إلى آدم، ص: ٦٦.

(٣٦) الدَّغَل: مايدخل على الأمر فيفسده.

(٣٧) لاطها: ألصقها، وخليفة الله: آدم، ولم يجعل لها أجلا: إشارة إلى مايزعمون من أن الحية لاتموت إلا بعرض يعرض لها، من قتل ونحوه، انظر الحيوان: ١١٨/٤.

(٣٨) سفر التكوين، الأصحاح الثاني: ٧ - ٢٤.

(٣٩) السفر نفسه، الأصحاح الثالث: ١ - ٧.

(٤٠) السفر نفسه، الأصحاح نفسه: ١٤.

(٤١) الديوان، ص: ٣٨٥، وانظر له شعراً في المعنى نفسه أيضاً، ص: ٣٧٨.

(٤٢) المصدر نفسه، ص: ٤٦١ - ٤٦٣.

(٤٣) يعتريه: يغشاه والنفث: شبيه بالنفخ، والنافث: الحاوي.

(٤٤) تظلع: تعرج. والقَسَم: يُبْسٌ في المرفق تعوج منه اليد والقدم، ولعله أراد مجرد الاعوجاج، لأنه من صفات أنياب الحية.

(٤٥) المَصْدَق: الجدّ والصلابة. وبَلَتُه: اختبرته، والضمير عائد إلى عذاب الله وعقابه.

(٤٦) الملل والنحل: ٢٤٣/٢، وبلوغ الأرب: ٢٧٦/٢.

(٤٧) الأكثم: الطريق الواسع.

(٤٨) المفضليات: ٥٢٤.

(٤٩) لم يخلعوا رسنى: كنّى بخلع الرسن عن إهمال قومه له، وتخليهم عنه.

(٥٠) المفضليات، ص: ٧٨.

(٥١) الغول: هنا، المنيّة، والمَهْيَع، البيّن الواضح.

(٥٢) الديوان، ص: ٩٨.

(٥٣) الأصمعيات، ص: ٨٥.

(٥٤) مُنِيَتُ: قُدِّرتُ. ووبيت: أصلها «وبئتُ» أي هُيئتُ.

(٥٥) نسب قريش، ص: ٢٠٨، والأغاني: ١٢١/٣، والروض الأنف: ٢٥٠/٢، وخزانة الأدب: ٣٨٩/٣، مع بعض الاختلاف في رواية البيت الثاني في المصادر الثلاثة الأخيرة.

(٥٦) حَدَد: مَنْع.

(٥٧) الأغاني: ١٢٥/٣. وقد نسب البيت الأول إلى زيد بن عمرو بن نفيل وإلى أمية بن أبي الصلت في السيرة النبوية: ٢٢٧/١.

(٥٨) البيعة: كنيسة النصاري، وأكثرت باسمك داعيا: أي خلقت خلقًا كثيرًا يدعون باسمك.

(٥٩) الديوان، ص: ٣٣.

(٦٠) الديوان، ص: ١٥.

(٦١) شرح القصائد العشر، ص: ٢٥٩.

(٦٢) الحماسة : ٢٩/١.

(٦٣) الزخرف : الآية٨٧، وانظر تفسير ابن كثير : ١٣٦/٤.

(٦٤) أيمان العرب في الجاهلية، ص: ١٥.

(٦٥) المصدر نفسه، ص: ١٩.

(٦٦) المصدر نفسه، ص: ١٥.

(٦٧) المصدر نفسه، ص: ١٥.

(٦٨) القاموس المحيط، وتاج العروس: مادة (روح).

(٦٩) الديوان، ص: ١٥٩.

(٧٠) الديوان، ص: ٢١٧.

(٧١) المفصل في تاريخ العرب: ١٤١/٦، وانظر الوثنية في الأدب الجاهلي، ص: ٢٥٧، ومابعدها.

(٧٢) الديوان، ص: ٤١.

(٧٣) أرواح: الأولى جمع روح، والثانية جمع ريح.

(٧٤) القاموس المحيط، ولسان العرب، وتاج العروس: مادتا (روح) و(نفس)، وقد ذهب العلامة ابن قيم الجوزية إلى أن أرواح بني آدم لم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفحه، انظر كتاب الروح، ص: ٢٤٥.

(٧٥) الديوان، ص: ٩٨.

(٧٦) الجِرْم : البدن.

(٧٧) الديوان، ص: ٥٧.

(٧٨) الديوان، ص: ٣٦٧.

(٧٩) حوية الماء : معظمة. والآذي: موج البحر. والحدب: الموج، واعتلق أي علقته المنية فمات.

(٨٠) الديوان، ص: ٨٣ – ٨٥.

(٨١) تغبُّ : تنقطع وتفتر.

(٨٢) معجم الشعراء، ص: ٧٧.

(٨٣) أبيض: أراد رجلاً أبيض. والبياض كناية عن الشرف. صبحتُ : من «الصبوح» وهو شرب الخمر صباحاً.

(٨٤) الحُمياً : سورة الخمر وشدتها.

(٨٥) مغامرة الفصل الأول: ص١٢٣، ومابعدها.

(٨٦) الديوان، ص: ٥٣٠ – ٥٣٢.

(٨٧) التنور : مايخبز فيه، وكان فور الماء منه علامة لوقت الطوفان، وفيه أقوال أخرى.

(٨٨) تَرَفَّع : تترفَّع : أي تسرع، والضمير عائد للسفينة، والأطيط : صوت الرَّجل أو الباب، وجعله للسفينة على التشبيه، ومَحَال: جمع محالة، وهي البكرة العظيمة يُستقى عليها. والدوالي: جمع دالية، وأراد بها الدِّلاء العظيمة.

(٨٩) الغواطي: جمع غاطية، وهي الظلمة التي تغطي ما على الأرض.

(٩٠) الجودي : الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح عليه السلام. والنهى: هنا، النهاية.

(٩١) الآية : العلامة. والقطف: أراد به قضيب الزيتون الذي حملته الحمامة دلالة على اليابسة. والجادي: الزعفران، أي أصبح ذلك الموضع بلون الزعفران.

(٩٢) سفر التكوين، الأصحاح الثامن: ١٠–١١، وانظر الأصحاحين السادس والسابع أيضًا.

(٩٣) الديوان، ص: ٤٦٤ – ٤٦٥، وص: ٣٣٦ – ٣٤٣.

(٩٤) الديوان، ص: ٣٦٥.

(٩٥) تبدأها : بدأها وأنشأها.

(٩٦) الديوان، ص: ٢٢٢.

(٩٧) نسب قريش: ص٢٠٨، والأغاني: ١٢١/٣، والروض الأنف: ٢٥٠/٢.

(٩٨) الجَمُد : جبل بنجد.

(٩٩) مجمع الأمثال: ١١٩/١.

(١٠٠) الأصنام : ص٥٤ – ٥٥.

★ ★ ★

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الاشتقاق : لابن دريد (ت ٣٢١هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، بغداد ١٩٧٩م.
- الأصمعيات : للأصمعي (ت ٢١٦هـ)، تحقيق هارون وشاكر، مصر ١٩٦٧م.
- الأغاني : للأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، ط دار الكتب المصرية ١٩٣٠م.
- أيمان العرب في الجاهلية : للنجيرمي (ت ٤٣٠هـ)، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٤٣هـ.
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب؛ لمحمود شكري الألوسي، مصر ١٣٤٣هـ.
- تاج العروس من جواهر القاموس؛ للمرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، بيروت.

- تأويل مشكل القرآن؛ لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) تحقيق أحمد صقر، القاهرة ١٩٥٤م.
- تفسير ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (ت٧٧٤هـ)، البابي الحلبي، مصر.
- الحماسة: لأبي تمام (ت ٢٣١هـ)، شرح المرزوقي (ت ٤٢١هـ)، تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون، القاهرة، ١٩٥١م.
- الحيوان: للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، مصر ١٩٦٥م.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: للبغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ١٩٦٨م.
- ديوان الأعشى الكبير: تحقيق محمد محمد حسين، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ديوان امرئ القيس: تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مصر ١٩٦٤م.
- ديوان أمية بن أبي الصلت: تحقيق د. عبدالحفيظ السطلي، دمشق ١٩٧٧م.
- ديوان عدي بن زيد العبادي: تحقيق محمد جبار المعيبد، بغداد ١٩٦٥م.
- ديوان قيس بن الخطيم: تحقيق د. ناصر الدين الأسد، القاهرة ١٩٦٢م.
- ديوان لبيد بن ربيعة العامري: تحقيق د. إحسان عباس، التراث العربي، الكويت ١٩٦٢م.
- ديوان النابغة الذبياني: تحقيق - محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٨٥م.
- الروح: لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٥٢هـ.
- الروض الأنف: للسهيلي (ت ٥٨١هـ)، تحقيق عبدالرحمن الوكيل، القاهرة ١٩٦٧م.
- السيرة النبوية: لابن هشام عبدالملك (ت ٢١٨هـ)، تحقيق السقا والأبياري والشلبي، البابي الحلبي، مصر ١٩٥٥م.
- شرح القصائد العشر: للتبريزي (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق د. فخر الدين قباوة، حلب ١٩٧٣م.
- الشعر والشعراء: لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مصر ١٩٦٦م.
- طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٤م.
- القاموس المحيط: للفيروز آبادي (ت ٨١٦هـ)، القاهرة ١٩٥٢م.
- الكتاب المقدس (العهد القديم)، بيروت ١٩٧٦م.
- لسان العرب: لابن منظور (ت ٧١١هـ)، بولاق ١٣٠٠هـ.
- مجمع الأمثال: للميداني (ت ٥١٨هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط١ مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٩م.
- معجم الشعراء: للمرزباني (ت ٣٨٤هـ)؛ البابي الحلبي، مصر ١٩٦٠م.
- مغامرة العقل الأولى: لفراس السواح، بيروت، ١٩٨٠م.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، بغداد ١٩٧٦م.

- المفضليات : للمفضل الضبي (ت ١٧٨هـ)، شرح الأنباري (ت ٣٠٤هـ)، عني بطبعة لايل، بيروت ١٩٢٠م.
- الملل والنحل : للشهر ستاني (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق محمد سيد كيلاني، البابي الحلبي، مصر ١٩٧٦م.
- نسب قريش : لسعد بن عبدالله الزبيري (ت ٢٣٦هـ)، تحقيق أ. ليفي بروفنسال دار المعارف، مصر ١٩٥٣م.
- الوثنية في الأدب الجاهلي : دار عبدالغني زيتوني، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٧م.

● ● ●